تعقيبان

على محاضرة د. زكي نجيب محمود
« الحضارة وقضية التقدم والتخلف »

التعقيب الاول
للدكتور سهيل ادريس

ايها الزملاء الكرام ،

استمعنا في يوم الافتتاح الى محاضرة هامة وقيمة للدكتور زكي نجيب محمود عن « الحضارة وقضية التقدم والتخلف » وهي تتميز بالوضوح والصراحة ، وقد اثار فيها المحاضر الكريم جملة من القضايا التي تحتل في حياتنا اليوم مكانا بارزا وتطرح امامنا خيارات عدة يتوقف عليها مصيرنا كله في حضارة الساعة الراهنة .

ولكن ارجو ان تسمحوا لي بتقديم عدد من الملاحظات على آراء الاستاذ المحاضر على رأسها ملاحظة اساسية هي طريقته التجزيئيه للحضارة ، وبالتالي للانسان الذي ينتج الحضارة .

فالاستاذ المحاضر يذهب الى ان العقلانية وحدها هي العنصر الضروري والكافي لتعريف الحضارات وقياس درجاتها .

على انه في القسم الاول من محاضرته يقول « ان عالم الشعور وما ينتجه ضروري لكل حضارة » ، ولكنه لا يلبث ان يقول :« ان كلمة « التقدم » بالنسبة للآداب والفنون ليست بذات معنى » ، فكيف يكون عالم الشعور ضروريا لكل حضارة ثم يكون تقدمه غير ذي معنى ؟ وكيف تكون الآداب والفنون ضرورية في الوقت الذي تكون فيه العقلانية وحدها ضرورية وكافية ؟ انها اذا كانت كافية فان عالم الشعور في منطق الكاتب ، لا ضرورة له لتكوين الحضارة في حين يعترف اولا بانه ضروري .

ونحن نعتقد ان هذه المفارقة ناتجة عن مفهوم خاص للاستاذ المحاضر لفكرة العقلانية فهو يضع بينها وبين الشعور والوجدان حجبا صفيقة ، ويقيم حواجز غير قابلة للعبور في حين ان الانسان مجموعة تركيبية مندغمة من العقل والوجدان في وقت واحد ، وان تداخل العقلاني والوجداني في تفكير الانسان وسلوكه هو من العمق والتشابك بحيث نقع في تحطيم الانسان اذا شئنا ان نميز بينهما لنقيم من كل منهما عالما مستقلا تمام الاستقلال عن العالم الآخر .

اننا لا نفهم كيف يكون العقل منفيا عن عالم الآداب والفنون في كل حضارة ، لا نفهم اطلاقا ان تكون ثمة حضارة قائمة على العقل والعقلانية دون ان يكون للفنون والآداب فيها دور هام . حتى الامثلة التي استشهد بها الاستاذ المحاضر حين ذكر عصر المامون وعصر اسرة مديتشي . فقد كان ازدهار الآداب والفنون فيهما سمة اساسية من السمات الحضارية في تلك العهود .

وفي هذا المضمار يذكر المحاضر الخليل بن احمد حين يستخلص عروض الشعر استخلاصا بلغ ، على حد قوله ، « حدا مذهلا من كمال العقل الرياضي ودقته » ولكن هل كان يغيب عن الخليل حين كان يستخلص عروض الشعر انه انما يتوجه الى موضوع الشعر بالدرجة الاولى ؟ لان الشعر هو « قبل كل شيء » التعبير عن الوجدان وعن العقل ، والعروض يأتي ليكون تقنينا « لشكله » فحسب . ثم ان المحاضر يطلب منا « الا ننظر الى الماضي لانه نظر الى الوراء ، على حين ان التقدم يقتضي ان نوجه النظر الى امام » . ولكنه بالمقابل يطلب منا ان ننظر الى الحضارة الاوروبية الاميركية (اي الرأسمالية) ، فيحصر الحضارة بذلك ، مهملا كل حضارة اخرى قائمة ، كالحضارة الشرقية او الحضارة الاشتراكية . وما قول سيادته حين تصبح الحضارة اليابانية الصينية بعد فترة من الزمن هي حضارة العصر ؟ أيكون دورنا ان نتلقفها متخلين عن الحضارة الاوروبية الاميركية ؟ انه يوضح ان الانحصار في الماضي هو انحصار في نمط واحد من انماط الحضارة . اليس الانحصار في الحضارة الاوروبية الاميركية انحصارا في نمط واحد من الحضارة كذلك ؟

وحين يتحدث عن مزايا الحضارة الاوروبية الاميركية ، نراه يتغنى بمدى الحريات السياسية والاجتماعية وسواها ، ولكنه يأبى ان ينظر الى بعض المظاهر اللاحضارية ، بل المنافية لكل حضارية ، في هذه الحضارة . لماذا لم يحدثنا المحاضر الكريم عن تناقض مفهوم الحرية في الحضارة الاميركية القائمة وعن التمييز العنصري فيها ، فاذا كانت تعني الرجل الابيض فهي الرخاء والنعيم والانطلاق من كل قيد ، اما اذا كانت تعني الرجل الاسود ، فهي القمع والاضطهاد وحرمان هذا الانسان من كل حقوقه والعمل على استئصاله . اذا كانت هذه الحرية تعني الصهيونية واسرائيل ، فيجب ان تاخذ شكل مساعدات هائلة ببلايين الدولارات ودعم المطالب الصهيونية بالقضاء على الشعب الفلسطيني ، اما اذا كانت تعني العرب ، فهي معاملتهم كبشر من الدرجة الثانية والاستهانة بهم ومساعدة اسرائيل لاحتلال اراضيهم .

ولكن لنعد الى تحليل هذا المفهوم للحضارة بين التكنولوجيا والادب

والفن ، بين العقلانية والوجدانية . فالدكتور زكي نجيب محمود يرى ان التقدم لا يكون الا في معرفتنا العلمية ، واما ما هو خاص بالوجدان، « فلا اظن ان الام العصرية الثكلى تبكي فقيدها على نحو اكمل من بكاء الامهات بالامس » ، فهل صحيح ان التعبير الادبي لم « يتقدم » ولم « يتحضر » منذ الخنساء ، وان الادب الغزلي لا يزال واقفا في تعبيره عند حدود قيس في عشق ليلاه ؟ ان الاستاذ المحاضر يلغي بهذه النظرة كل ما احرزه الادب من تطور وتحضر طوال القرون الماضية ، لا الادب العربي وحده بل كل ادب اخر اسهم في تكوين الحضارات العالمية . والواقع ان آفة هذه النظرة تكمن في امكان التفكير بان الحضارة تبنى فقط على العقل ولا اهمية للوجدان فيها ، وفي امكان التفكير بأن العقلانية يمكن ان تتطور وتتقدم بمعزل عن الادب والفن . ان ارتباط تقدم العقلانية والوجدانية هو ارتباط عضوي وجذري وكلناهما تؤثر في الاخرى بقدر ما تتأثر بها . ومن هنا ما نسمعه اليوم ، ومنذ فترات بعيدة ، وسنظل نسمعه الى فترات طويلة قادمة ، من اصوات المفكرين والفلاسفة في ادانة المظهر المادي المحض الذي تفرزه العقلانية وحدها ، بالمفهوم الذي يراه المحاضر ، لتكوين حضارة القرن العشرين . وغير خاف على احد ان الحضارة بهذا المظهر تحدث اليوم ردود فعل عنيفة، قد لا نقر بعضها ، في ضرورة تخفيف ضغط الالة التي يسميها المحاضر « الاجهزة » والعودة الى الطبيعة واطلاق الطاقات الروحية للانسان ، بل حتى في الدعوة الى الغاء المدرسة واقامة مجتمع بلا مدارس يحاول فيه الانسان ان يقيم التوازن بين قواه المادية وقواهالنفسيةوالروحية. وربما كانت جائزة نوبل بالذات دليلا ذا معنى على اختراع العقل المدمر وتدخل الوجدان الانساني للحد من تدميره .

ومرد الامر كله هو الاجابة على السؤال التالي : ما غاية الحضارة بذاتها ؟ اليست هي سعادة الانسان ؟ وهل العلم وحده ، القائم على العقل وحده ، كاف لتامين سعادة الانسان ؟ ان الحضارة لا تهمنا بذاتها الا بقدر ما توفر لنا السعادة والتقدم والحرية ، ونعتقد ان امامنا تفكيرا طويلا ، بل شكا عميقا بان تستطيع الحضارة الاوروبية الاميركية، بكل مظاهرها الحاضرة ، توفير هذه السعادة للانسان بصورة عامة ، وللانسان العربي بصورة خاصة .

ان المحاضر الكريم الدكتور زكي نجيب محمود يدعونا ، لكي ندخل في عصرنا ، الى « ان تصبح قيمنا قائمة على علمنة وعلى تقنية وعلى منفعية ... فاذا لم تعجبنا هذه الصفات ، لكونها غريبة على ثقافتنا الموروثة ، كان علينا احد امرين : اما ان نلوي عنق العصر حتى يرى الدنيا بأعيننا ، واما ان ننسحب من العصر الى حيث شئنا ان يكون الاختفاء الى ستر الظلام . »

ولكن لماذا يحصرنا المحاضر ، بروح من الانتقائية الواضحة ، في هذين الاختيارين وحدهما ؟ ان امامنا اختيارات اخرى : اختيارات كثيرة بين العلمنة وحدها بالمفهوم الضيق الذيطرح علينا وبين الانسحاب من العصر . ان امامنا على الاقل اختيارا ثالثا ، هو تبني العلمنة بمفهوم واسع متطور يأخذ من الحضارة القائمة ، اوروبية اميركية كانت ام شرقية اشتراكية ، ويأخذ من التراث يحيي منه قيما كانت في اساس الحضارة العربية السابقة (ما دام الدكتور زكي نجيب محمود يقر بوجود مثل هذه الحضارة) ويطور معطيات حضارية جديدة يستغلها لصالحه في استبقاء شخصيتنا القومية وكينونتنا الانسانية التي بها نستطيع ان نسهم بالحضارة القائمة ان لم نستطع خلق حضارة انسانية جديدة .

اما رؤية المحاضر الكبير التي انهى بها بحثه فليسمح لنا بان نصارحه بانها « توفيقية » لانها مملاة بروح « تسوية » ، غريبة على المقدمات . فهو يعتقد بان ما يزيل القلق عندنا اذا اردنا استبعاد افناء ثقافتنا في ثقافة غيرنا ، هو ان ينحصر تفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي ليست هي مقياس التقدم الحضاري ، يعني بها جوانب العقيدة والفن ... شريطة « ان نتحضر بحضارة العصر في اخص خصائصها » وهكذا يريدنا ان ننفرد بما ليس مقياسا للتقدم الحضاري ... اهذا كل ما يطلب منا كأمة لها تاريخها الحضاري ، وهي مدعوة بالتالي الى المشاركة الحضارية الجديدة ؟ ونسأل الدكتور : وما يكون الموقف اذا تعارض هذا التفرد الثقافي ، كالعقيدة مثلا ، مع التقدم الحضاري ؟ كيف نحل هذه الازمة ؟ السنا نعيش بالفعل هذه الازمة اليوم ، نتزيا بالتقدم الحضاري بينما نحن في الداخل متخلفون ، متخلفون بسبب ما يسميه بالتفرد الثقافي بالذات ؟ اليس فيما يطلبه الدكتور منا تكريس لواقع متخلف ؟

ان العقلانية والعلمانية اللتين طالبنا بهما طوال ساعة تضر بهما في اخر المطاف روح من المصالحة هي التي تجعلنا الان نعيش حياة ازدواجية تأخذ صورة شبه كاريكاتورية بين مظهر براق نقتبسه من لمعان الحضارة المادية وداخل متخلف هو الذي دعينا في هذه الندوة الى معالجته .

واخيرا فان المحاضر (١) يذهب الى ان تطور الادب والفن لا يمكن قياسه ، لانه لا يتقدم . فما هو مقياسه او دليله على انه لا يتقدم ؟

ان الادب والفن هما اللذان فتحا الباب واسعا لبعض العلوم ، من مثل موضوع الجنس والعقل الباطن ، فهو الذي ادى الى تقدم الطب وعلم النفس على ما يعترف فرويد نفسه . ثم ان هناك عدة تطورات علمية سبقتها تطورات ادبية واثرت بها . التطور الجمالي مثلا هو جزء من التطور الحضاري ، وهو يؤثر في الانسان بيولوجيا ونفسيا . والموسيقى مثلا آخر : اليس لها تاثير كبير في الانسان على الصعيد البيولوجي والسيكولوجي ؟ ويعرف علم الاجتماع عدة مقاييس لقياس التطور منها كمية انتاج الكتب والمجلات وعدد القراء وعدد مرتادي المسارح وعدد اجهزة التلفزيون والراديو ، وكلها من انتاج الفنون والاداب . وبعض العلوم تطورت كذلك بدءا من الفلسفة ، والفلسفة بدورها تطورت من الاساطير والخرافات ..

وعلى ذلك يكون تفريق المحاضر بين العقلانية والوجدانية محض تفريق مصطنع لا يستجيب حتى للمقاييس العقلانية التي يطلب اعتمادها وحدها .

* * *

التعقيب الثاني

للدكتور عبدالله عبد الدايم

طبيعي ان تكون ضالّة الاستاذ الكبير الدكتور احمد زكي نجيب محمود ، وهو يسعى الى تحديد معنى الحضارة وخصائصها ، الوصول الى رؤية فكرية تستطيع ان تولد موقفا عمليا قادرا على ان يدفع المجتمع العربي دفعا اوضح واقوى في طريق التقدم . فالمسألة التي تعنيه وتعني سواه هي البحث عن « الاطار الفكري » الذي ينبغي ان يهدي الامة العربية في مسيرتها نحو بناء حضارتها .

---

(١) في رده على ملاحظاتنا السابقة .

ومن هنا يقوم بالتنقيب عن الشرط اللازب لانطلاق اي حضارة ، ليكون امتلاك هذا الشرط سبيلنا الى ابتداع حضارتنا العربية المنشودة. وينتهي به المطاف ، بعد تجوال في رحاب الحضارات قديمها وحديثها ، الى العثور على « مصباح ديوجين » الذي يكشف له ضالته ، فيرى في النهاية ان معيار اي حضارة ومحرك انطلاقتها هو النظرة العقلية ، والاحتكام الى العقل ، وتغليب سلطان « العقلانية » على اي سلطان آخر .

ونحن نكبر هذه الدعوة الى « العقلانية » في مجتمع عربي يشكو حقا من غلبة « الغيبية » على الواقعية ، ومن سيطرة « الارتجال » على الرسم المسبق للامور ، ومن العجز عن القبض على ناصية الاحداث ومسيرة المستقبل افتقادا منه للتخطيط العقلاني الذي يرسم الاهداف واضحة ويحدد سبل الوصول اليها . ونحن نؤمن معه ان مقتل الجهد العربي ومصدر الهدر والضياع فيه ، غياب المنهج العقلاني الذي يجيد الاستخدام الامثل والافضل للموارد المتاحة .

بل نحن ندرك اعمق الادراك ان اشد ما يميز الحضارة العلمية التكنولوجية الحديثة ، ذلك السعي للسيطرة على الاحداث بل للسيطرة على المستقبل ، عن طريق التحديد المسبق لخطوات السير ومراحل الوصول . ويسعد هذه الحضارة العلمية التكنولوجية في مطامحها هذه، ما تولده من تقنيات عقلية منطقية تنظيمية ، تؤدي الى « عقلنة القرارات » كما يقال ، والى رسم الطرق المؤدية الى الاهداف ، بل الى رسم « تاريخ الغد » كله كما يقال . ولا ادل على ذلك من توالد تلك الاساليب الحديثة في الادارة والتسيير ، ومن تكاثر الطرائق التي تقوم « بالتنبؤ التكنولوجي » (من مثل طرائق « التحليل الاجرائي » و « تحليل النظم » وسواها) . بل لا ادل على ذلك من ان كثيرا من الباحثين الذين يحاولون الكشف عن « هوة التخلف » بين البلدان المتقدمة وبين سواها ، يردون هذه الهوة الى «الهوة الادارية التنظيمية»، ويرون ان المسألة في النهاية ليست مسألة « مادة رمادية » وتفوق في القدرات الدماغية بمقدار ما هي مسألة « تنظيم » وتفوق في الادارة والتسيير (على نحو ما يرى « شربر » مثلا في حديثه عن التحدي الاميركي) (1) .

من هنا نحن مع الدكتور زكي نجيب محمود عندما يريد ان يؤكد هاتين الحقيقتين : نحن معه عندما يريد ان يرد العجز الذي تعاني منه مسيرة التقدم العربي الى عجز في الرسم العقلاني لسبل الوصول، ونحن معه عندما يرى ان السمة الاولى للحضارة العصرية التي نحياها هي القدرة على التحكم في الكون حاضره ومستقبله ، عن طريق « عقلنة القرارات » والامساك العملي المسبق بمجرى الاحداث وصورة المستقبل .

غير اننا نختلف مع الدكتور زكي نجيب محمود عندنا يجاوز تقرير هاتين الحقيقتين ، وعندما يحاول ان يستخلص منهما نتائج تتصل بأمرين اثنين : اولهما تعريف الحضارة عامة ، وثانيهما تحديد سبل الانطلاق نحو بناء اي حضارة استنادا الى ما تكشف له من اهمية « التخطيط العقلاني » في عصرنا .

والحق ان نقطة الضعف في منهج الدكتور زكي ، كما تبدو لنا ، تكمن في انه يصدر عن موقف مسبق ونظرة مبيتة املاهما تأمله في واقع التخلف العربي وفي منطلقات الحضارة الحديثة . وما تحليله الموضوعي في ظاهره لتاريخ الحضارات الا محاولة يريد من خلالها ان يستخرج بأي ثمن ، من تقريه لتلك الحضارات ، الفكرة المسبقة التي افترضها سلفا والتي فرضها عليه تأمله للواقع العربي وللحضارة الغربية. ونحن لا ننكر عليه ما انتهى اليه من تقرير لاهمية « العقلانية » اذا كان هدفه مجرد البحث في ثغرات الوجود العربي في ضوء التجربة العالمية الحديثة . اما ما ننكره فهو ان ينتقل من ذلك الى تقرير حقيقة عامة تتصل بجوهر الحضارات كلها وتتصل بالتالي بالمنطلق الواجب لكل حضارة .

ذلك ان السؤال الاول الذي لا بد من طرحه ، هو التالي : هل « النظرة العقلانية » التي توجه الحضارة الحديثة ، سبب لهذه الحضارة ام نتيجة ؟ وهل اجتراح هذه « النظرة العقلانية » هو مجرد « بلسم » تستطيع ان تبتلعه اي امة فاذا بها « تتحضر » بفضله، ام ان وراء هذه « النظرة العقلانية » للامور عوامل اعمق ، بدونها لا تكون الحضارة ولا تكون « العقلانية » ؟ هل « العقلانية » نقطة الانطلاق في بناء اي حضارة ، ام انها في الحقيقة مرحلة متقدمة تلجأ اليها الحضارة الحديثة خاصة ، وتلجأ اليها لجوءها الى احدى نتائجها التي تؤدي الى مزيد من نموها وتطورها ؟

ولتوضيح هذا التساؤل ، نضع الحقائق الآتية :

١ ـ لم تكن « العقلانية » ، بالمعنى الذي حددناه وبالمعنى الذي نستخرجه من بحث الدكتور زكي (نعني « رسم الطرق المؤدية الى الاهداف ») ، هي الصفة المصاحبة للحضارات القديمة عامة ، وللحضارات الثلاث التي استشهدبها صاحب البحث، (حضارة اليونان وحضارة العرب في ايام المأمون وحضارة فلورنسة في اوروبا) . ويرجع الخطأ في تحليل الدكتور زكي في هذا المقام الى انه ينتقل انتقالا غير

البقية على الصفحة ١٤٩

صدر حديثا

عن

منشورات دار الانوار ببيروت

دراسات فلسفية

محاولة ثورة في الفلسفة

للاستاذ تيسير شيخ الارض

يطلب من المكتبة العباسية بدمشق

(1) انظر الترجمة العربية لكتابه ـ نشر دار النهضة ، بغداد .

تعقيب الدكتور عبدالله عبد الدايم

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٢ ـ

منطقي بين مفهومين متباينين لكلمة عقلانية . فهو يشير اصلا الى العقلانية بمعناها الحديث، بمعنى التنظيم المنطقي لسبل الوصول ، حتى اذا عرّج على الحضارات القديمة المذكورة عنى بالعقلانية شيئا اخر وهبط بها الى مجرد اللجوء الى حكم العقل ، ورفض ما سواه من اهواء وعواطف وتقاليد . وشتان بين المفهومين .

٢ ـ على اننا حتى اذا قبلنا جدلا هذا المفهوم الثاني للعقلانية (اي مجرد الاحتكام الى العقل بهذا المعنى الواسع الغامض) فهيهات ان يكون « حكم العقل » هذا معيارا من معايير الحضارة قديمها وحديثها . وهيهات ان تكون دفقة الحضارة في امة من الامم نابعة من سلطان العقل وحده . وهل كانت حضارة الفراعنة ، على جلالها ، حضارة يسيّرها العقل دون الهوى والمعتقد والدين ؟ وهل كانت حضارة يونان نفسها ، حضارة سقراط وافلاطون وارسطو ، حضارة يقودها العقل ؟ هل كان « عالم المثل الافلاطوني » و « جمهورية افلاطون » و « ما بعد الطبيعة » لارسطو ، مجرد عمل عقلي بعيد عن الاهواء الدينية والتصورات العاطفية والتفكير المثالي الغارق في « ما وراء الطبيعة » وفي الاسرار الغيبية التي ترجع جذورها الى الفيثاغورية والاورفية والكثير من الديانات السحرية القديمة ؟ او لم تكن « اسبارطة » اكثر احتكاما الى العقل المنظم من « اثينا » ، ومع ذلك لم تكن لها مثل حضارتها شاوا ومنزلة ؟

والحضارة العربية ايام المأمون ، هل كانت حضارة مقياسها العقل ، ام كانت وليدة الديانة الاسلامية وامتزاجها بالثقافات الاجنبية ؟ وهل كانت مباحث المعتزلة وعلماء الكلام ومحاورات « خلق القرآن » منازع يسودها الاحتكام الى العقل ، ام محاولات لتأييد الدين ؟

والامثلة لا تحصى على الحضارات القديمة التي كانت في معظمها حضارات دينية قبل ان تكون عقلية ، والتي كانت تستقي حرارتها وقوتها من معين العاطفة والانفعال ، قبل معين العقل والتعقل . ولا ندري اين نجد الطابع العقلي في حملات الاسكندر الكبير الحضارية ، او في فتوحات الاسلام ، او حتى في غزوات « نابوليون » ، على ما فيها من طابع حضاري واضح .

لقد ولدت هذه الحركات الحضارية جميعها نظما عقلية وانتجت تراثا عقليا ، بالاضافة الى تراثها الوجداني والاخلاقي ، ولكن محركها ورائدها لم يكن العقل ، بل كان تلك الدفقة من الايمان برسالة ، ذلك الايمان الذي لا يكون العقل بدونه الا ثمرة جافة ونسغا بلا حياة .

٣ ـ وهذه الملاحظة الاخيرة تكاد تنقلنا الى جوهر الامر : هل دفقة الحضارة في امة من الامم مجرد تفكير عقلي منظم « يعقل » ويضبط ، ام انها قبل هذا وفوق هذا تفجر انفعالي يسقي جذوره من رؤية « رسولية » للكون ومن ايمان عاطفي عميق يدفع الى تغيير صورته وتجديد موقع الانسان فيه ؟

ان العقل في النهاية مجرد اداة لتنظيم الكون ووسيلة « لفبركة الاشياء » كما يقول برغسون . انه في اعماقه اداة احجام وليس اداة اقدام . واذا لم يكن وراءه تلك الرؤية الانسانية المبللة بالانفعال والايمان برسالة ، ظل عاجزا عن ان يمارس دور التنظيم ومهمة « التقعيد » .

ولعل الدكتور زكي يشعر بذلك حين يقصر عمل « العقل » على رسم الخطوات الواصلة بين مبدأ مفروض وهدف مطلوب . غير أن المسألة كلها في بناء الحضارات ليست في مرحلة الوصل هذه ، بل في تحديد المبدأ وصياغة الهدف . اما مرحلة الوصل ، نعني عمل العقل ، فتأتي نتيجة طبيعية لوضوح الاهداف والايمان بها ، ولا بد ان يولدها الايمان بالهدف عاجلا او آجلا على شكل من الاشكال .

٤ ـ وقد يقودنا هذا الى ابحاث متعمقة ومتأنقة في جوهر «التطور الخلاق » وفي طبيعة الوثبة الحيوية المبدعة لدى الافراد والامم . غير اننا نكتفي في هذا المجال ـ اجتنابا للبحث الفلسفي المجرد ـ بما تقرره الدراسات النفسية الحديثة التي تفرق اليوم تفريقا حاسما بين « الذكاء » وبين « الابداعية » ، والتي ترى في الاول مجرد طاقة تنظيمية ، تتصف بالمحافظة والاتباع وتقتصر على تنظيم الامور من خلال واقع محدد ، بينما ترى في « الابداعية » ـ وهي جوهر الحضارة ومنطلقها ـ طاقة خلاقة فعالة تخلق الحلول وتولد الآفاق وتنأى عن المألوف . انها تصف الذكاء بانه طاقة مجتمعة منظمة (convergent) بينما تصف الابداعية بانها طاقة جوالة آفاقة مفتقة للمسائل (divergent) والامم المبدعة ـ كالافراد المبدعين ـ هي التي استطاعت ان تولد الجديد وأن تبحث عن آفاق انسانية جديدة وان تخالف المألوف والسائد ، وان تغامر لتوليد حياة بشرية محدثة ورؤية كونية مبتكرة . اما دور العقل فيأتي بعد ذلك كله ، ونتيجة لذلك كله . ولعل الابحاث النفسية التي قامت حول « العبقرية » تستطيع ان ترشدنا ايضا في هذا المجال . انها تسخر ممن رد العبقرية الى «الذكاء المتفوق» ، وترى ان في العبقرية دوما ذلك التفجر البركاني الانفعالي الذي لا يكون اكبر الاذكياء بدونه سوى نبتات لا ماء فيها ولا حياة .

٥ ـ وآية هذا كله ان الحضارة كل لا يتجزأ ، وان العقل فيها جانب من جوانبها لا يعمل الا اذا اكتملت سائر الجوانب . وهل أدت سيطرة العقل المنطقي الصوري في العصور الوسطى الاوروبية الى توليد حضارة ؟ او لم يكن « دوران العقل حول ذاته » بسبب تعاليم ارسطو كما تبنتها الكنيسة ، سببا في عقم الحضارة الغربية طوال قرون ؟ او لم يأت « بيكون » بمنطقه الجديد (Novum organum) ليدحض منطق ارسطو ، ولينكر الفكر الذي يدور حول نفسه ، وليدعو الى تفجر الحضارة عن طريق الملاحظة والتجربة وتقري الكون والاشياء ؟ وهل الحضارة الحديثة في جنوحها سوى نتيجة للخروج من سجن العقل الصوري ، الى واقع الحياة الحي الخصيب ؟ وهل كان عصر النهضة سوى عودة الى غنى الطبيعة والى ثراء العاطفة والى الصلة الانفعالية بين الانسان والكون ؟ او لم تتفجر الحضارة الحديثة بعد ذلك ادبا وفنا وشعرا وموسيقى وفلسفة كما تفجرت علما وتجربة وتقنية ؟

٦ ـ والحق ان شرارة التقدم والحضارة هي دوما وليدة اللقاء بين قطبين : الاول هو قطب الايمان برسالة والعزم على بناء تجربة انسانية جديدة ، والثاني هو قطب المهاد العقلي والعلمي والتكنولوجي الذي يقدم لذلك الايمان اسلحته ويرسم له « سبل الوصول » الى الاهداف . وما قامت حضارة في تليد القرون وجديدها الا نتيجة اللقاء بين الايمان بهدف وبين رسم وسائل بلوغه . وكما ان الايمان بالهدف اذا لم يكن مسلحا بالوسائل العقلية والعلمية والتنظيمية يظل عاجزا ،

فالوسائل لا تجدي ولا تجد منطلقها الا عندما تتضح الرؤية وتستبين الغاية وتكتمل الدفقة الانفعالية اللازمة للايمان بها وحملها . بل ان الايمان بالهدف قادر على ان يولد وسائله ، اما العكس فغير صحيح .

وهل من حضارة اعمق تسلحا بالعقل والعلم والتقنية من الحضارة التي ولدتها الشيوعية ؟ ومع ذلك ، ما كان لهذا السلاح العقلي والعلمي والتقني ان يجد سبيله لولا ان حركه ودفع اليه ايمان ايديولوجي بلغ حد الصوفية .

لقد صدق عالم الاجتماع الشهير « غورفيتش » حين رأى ان الحضارة تنطلق في مجتمع من المجتمعات حين يعزم هذا المجتمع على ان يمسك مصيره بيديه وعلى ان يرسم حياته الخاصة ، وحين يعي في الوقت نفسه امكانات هذه السيطرة على مصيره ومستقبله . وعند ذلك يصطنع في سبيل الوصول الى رؤيته الجديدة شتى الوسائل العلمية والعقلية والتقنية والخلقية والفنية وسواها .

ولقد صدق ايضا « ريد فيلد » حين رأى ان الحضارة تتصف اولا وقبل كل شيء بحال عليا من الوعي لدور الثقافة . وهذا الوعي العميق المتوتر لدور الثقافة ، يعني بطبيعة الحال الايمان بالقيم التي تستطيع هذه الثقافة ان تولدها .

* * *

وبعد ، بحث الدكتور زكي نجيب محمود يثير شجونا كثيرة ، هيهات ان يتسع المقام للافاضة فيها . وجل ما نريد ان نقوله امران :

أولهما ان « العقلانية » بالمعنى الحديث والمحدد لهذه الكلمة (بمعنى رسم سبل الوصول) سمة اساسية من سمات الحضارة في عصرنا ، بدونها لا نستطيع ان نفهم هذه الحضارة . وغياب هذه النظرة العقلانية في مجتمعنا العربي عامل اساسي من عوامل تخلفنا عن العصر . ونحن في هذا كله نلتقي مع الدكتور زكي . غير اننا لا نلتقي معه حين يعود ليفهم العقلانية فهما اخر ، يجعلها صنوا لتحكيم العقل في شؤون الحياة ، وحين يجعل من العقلانية ، بهذا المعنى ، الخاصة المميزة للحضارات قديمها وحديثها .

وثانيهما ان « العقلانية » بالمعنى الحديث للكلمة ليست سببا للحضارة الحديثة او لاي حضارة ، وانما هي نتيجة . ومنطلق الحضارة اخيرا هو ذلك الزواج بين « الرؤية الرسولية » التي تعني الايمان بمصير جديد للامة وللانسان ، وبين وسائل بلوغها وهي عديدة ، وعلى رأسها التنظيم العقلاني والتفكير العلمي والاتجاه الى تسخير الكون والطبيعة (الاتجاه التقني) ، دون ان تنفصل هذه الوسائل كلها ـ على اهميتها ـ عن الابداع الفكري والفني والادبي والخلقي وسائر اشكال الابداع .

ومجتمعنا العربي ـ في سعيه نحو تجاوز تخلفه وبناء حضارته ـ لا بد له من اجتماع هذين المطلبين : ارادة البناء وحمل الرسالة والعزم على خلق حضارة عربية انسانية من جهة (وهذه كلها امور تحتاج الى جذور انفعالية ـ عقلية تتجاوز « العقلانية » بمفهومها المحدد) ، ثم امتلاك الاساليب العلمية والتقنية والتنظيمية التي تجعل من تلك الارادة ارادة فعالة ناجعة ، والتي تيسر سبل الوصول ، وتؤدي الى الاستخدام الامثل للموارد البشرية والمالية والمادية .

وخطأ ان نظن ان مجرد امتلاك اساليب البحث العلمي والتنظيم العقلاني يؤدي الى خلق حضارة ، بل خطأ ان نعتقد ان مثل هذا الامتلاك ممكن اذا لم تحركه وتحرضه ارادة قومية مؤمنة برسالة الامة ودورها وامكاناتها . وتحريك مثل هذه الارادة ليس مجرد عمل «عقلاني»، بل هو مستوى من الوعي والارادة والشعور بالذات ، له عوامله العديدة وله بواعثه الانفعالية الارادية فضلا عن بواعثه العقلية .

ان الدعوة الى « العقلانية » وحدها والدعوة الى العلم والتقنية وحدهما دعوة علمية مخلصة وهامة ، ولكنها ليست دعوة قومية ولا هي دعوة قادرة على ان تبني حضارة . وتظل الحضارة ، ويظل البناء القومي وراء هذا كله : انه في تحريض ارادة البناء وارادة الحياة وفي بعث روح الرسالة . وعند ذلك تجد « العقلانية » دورها ويجد العلم والتقنية مكانهما ، وتصبح الوسائل في خدمة غايات محددة ، بل تمتلك الغايات وسائلها المتفقة معها .

« هؤلاء الصهاينة

ستبتلعهم الصحاري العربية »

شارل ديغول

بقلم : كمال البيضاوي

رئيس الديوان السابق في رئاسة الجمهورية اللبنانية

تفاصيل اسرار الخيانة المذهلة التي ادت الى كارثة الخامس من حزيران .

اول تحليل عربي عن ملابسات المؤامرة التي شلت تحركات الجيوش العربية ومنعتها من الالتحام بالقوات الاسرائيلية ،وعوامل النصر الذي حطم اسطورة اسرائيل في حرب رمضان (اوكتوبر) .

يطلب من : مكتبة « اسكوار » ـ بيروت

ص . ب ٢٩٩٥ ـ ت ٣٤٨٠٧٤